دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	العربية والعلوم والتعليم
المصدر:	المورد
الناشر:	وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة
المؤلف الرئيسي:	الشمري، مهدي صالح سلطان
المجلد/العدد:	مج45, ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الصفحات:	187 - 200
رقم MD:	976371
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	اللغة العربية، تعريب العلوم، النهضة العلمية، التعليم العالي، البحث العلمي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/976371

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

العربيّـة والعلـوم والتعليـم

أ . د مهدي صالح سلطان(*)

● المقدّمة :

إنّ جُلَّ المختصّين من أهل العلوم التطبيقية لا يريدون أن يُفكّروا في اســتعمال العربية، لغــة لما يتداولــون من علوم، ويرون أن جهود التعريب مضيعــةٌ للوقت وللإمكانات، على الرغــم من أنّ هذه اللغة هي لغتهم الوطنيّة، ولغة المجتمع والدولة؛ ولا يعرف معظمهم شــيئاً مهمّاً يناسب ما يخصّه من أســس اللغة العلميّة بلغتهم، ولا فكرة حتى لو كانت أوّليّة عن نقل المصطلح من لغته الأجنبيّة إلى اللغة العربيّة، وكأنّهم يعيشون في بيئات غير عربيّة، وأنّ أمر تداول العلوم بلغة بلدهم لا يعنيهم، وأن لا صلة لهم بهذا الأمر من قريب أو بعيد، ومن يحســنُ النيّة منهم، ينتظر أن تنضج هذه المصطلحات وتكتمل عند غيره، ويندهش حين نُذكّره بأنّ أكثرها قد اكتمل في قرارات المجامع اللغوية ومكاتب التعريب، ولا يُنتظر منه سوى المباشرة بالتنفيذ والاستعمال.

ومــن الإنصاف أن لا نـُحَمّلُ هؤلاء الأســاتذة وزر هذا التقصير، بل هم ضحايا توجهات الأســاتذة الذين ســبقوهم، فلا تفكير في لغة العلم، ولا تخطيط لغوي وطنيّ مستقبلي؛ بشهادة مئات الاستمارات التي وضعتها لجنتنا (لجنة جامعة بغداد لاختبار اللغة العربيّة وضبط القرآن الكريم)، التي تفصح عما ندّعي ونزعم.

وهــذه دعــوة إلى جعل الإنجــاز العلمي الشــخصي والجماعي عربيّا، مســتوفياً لشروط الفصاحــة والوضوح والإفهــام، بلغة الأهل والمجتمع، لا غريباً عــن المتلقين، وبعيداً عن فهمهم. فليس أمام اللغة الحيّة إلاّ أن تكون لغةً للعلوم، فضلاً عن أن تكون لغة للأدب، فتعجّ بالوفاء بمتطلبات الحياة، ولاسيّما متطلّبات العصر وما فيه من علوم وفنون.

ونؤكّــد ضرورة حصر هذه القضية الكبرى في إطار العلم، إذ لا غنى للمجتمع عنها حين تــُختار المبادئ الأساسية للنهضة والتحديث، ومنها: اعتماد العلم والتكنولوجيا، وسيادة دولة القانون، والفرص المتكافئة بين المواطنين، والسلم الأهلي، والعلم المحض البعيد عن أيّ صراعات سياسيّة وآيديولوجية.

(*) جامعة الإمام جعفرالصادق (عليه السلام)

مـن التـي يصطـف بسـببها المتحمسـون إلى صفيّن، صـفّ القديم، وصفّ الجديد، يعارض بعضهم بعضا، فيترفع المختصون الذين بيدهم أمر التعريب ولاسـيما المتأثرون بالغربيين عن التعليم باللغـة الوطنية، مقدّمـين عليها اللغة الأجنبيـة وحدَها، مـن دون الالتفات إلى لغتهم وحاجة مجتمعهـم، في حين يوظفُ التقليديون الدعوة إلى التعريب سياسياً، فيجعلونها مجرّد وسـيلة للعودة إلى القديم، فتتحـوّل إلى قضية رأي عام، تجـرّ المجتمع إلى الانكفـاء والتراجع والإخفـاق، وتنفـّر المختصـين وأهـل العلوم التطبيقيّـة، وبذلك تحـرمُ الأجيال مـن تداولِ العلوم باللغة العربيّة، ويخسر المجتمع العربيَ الجمـعَ بين تراثـه الأصيل وحاجتـه الحقيقية إلى التجديـد، فتضيع قضيـة التعريب العلمية الخالصـة، والاجتماعية الكـبرى، بين الفريقين المتعصبين المتناحرين.

● **تمهيد :**

اللغة وعـاءُ الحكمةِ، ومصدر البيان، ووسـيلة التعبير عن وعي الإنسان، وقد انطلق الفلاسفة المسلمون من فهم البيان القرآني للكون والحياة، الذي أدخلهم إلى التعرّف على الفهم المعرفي الذي أساسه التصور الشامل للوجود، وهم يضعون الإنسـان في حيّزٍ منه، ثم يعدّون وجود الإنسان الوظيفي مرتهناً بالموضع الذي يحتله، وبالنظام الشامل الذي يحيط به، وبالهدف الأسمَى الذي وجد مـن أجله، وقد اسـتمدّوا هذا مـن القرآن الكريم، من مثـل قوله تعالى: ﴿خلق الإنسـان علمه البيـان﴾(الرحمن ٤)، أو من مثل النص على حقيقة أخرى: ﴿وعلم آدم الأسـماء كلها﴾ ـ (البقرة ٣١)، فيكون الخالق سبحانه وتعالى قد حدّد المجال الذي على الفكر أن يتحرك لملئه.

فالإنسـان عنـد الجاحظ: كائن يعـي وجوده، اسـتناداً إلى امتـلاك الفكر الناطـق؛ ولا يكون الفكر إلا ناطقاً؛ كما لا يكون النطق إلا فكراً، قال الجاحظ نفسه: (الفصيح هو الإنسان، والأعجم كلّ ذي صـوت لا يُفهِـمُ إرادتـه إلا ما كان من جنسـه... ووجدنا كونَ العالَـمِ بما فيه حكمة، ووجدناه على ضربين: شيء جُعِل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، فاستوى بذلك الـشيء العاقلُ وغير العاقل من جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أنّ أحدهما دليل لا يستدِل، والآخر دليل يستدِل، فكلُّ مستدلٍ دليلٌ وليـس كلُّ دليل مسـتدلًا، فشـارك كلّ حيوان سـوى الإنسـان، جميـع الجمـادات في الدلالة؛ وفي عدم الاسـتدلال، واجتمع للإنسـان أنْ كان دليلا مستدِلا، ثم جعل للمستدِل سببٌ يدلّ على وجوهِ اسـتدلاله، ووجوه ما نتج له الاسـتدلال وسَـمّوْا ذلك بياناً... وقال الله تبارك وتعالى:﴿ وما أرسـلنا من رسـول إلا بلسـان قومه ليبيّن لهم ﴾ ـ (إبراهيم٤) لأنّ مدار الأمر على الإفهام والتفهيم)[١].

وبهذا (يكون الإنسان قد وُهب الفكر واللغة معا لا أسـبقية لأحدهما على الآخـر وإنما وجودهما معاً داخل جدلية التكامل لا يتراءَى لك أحدهما متقدمـاً عـلى الآخر إلا تـراءى لك مـن وجه... وتلتحـم اللغـة بالفكر فيكون لـكل منهما من الوجـود بقدر ما للآخر؛ ولـو أنّ أياً منهما جاء اعتباطاً وارتبط بالآخـر اتفاقاً لكان جوهر كل منهما مباينـاً للآخر، فـكأنّ خلقهما في لحظة واحـدة، ومفصلا على قـدر وجود كلّ منهما، لا تجد إنساناً إلا ولغته بحجم عقله، وعقله بحجم لغته)[٢].

ونجـد أنّ نهضتنـا الفكرية ارتبطـت ارتباطاً واضحاً بالنهضـة اللغوية، وليس هـذا غريباً، لأنّ المعجزة القرآنيّة هـي معجزة لغويّة، لذلك كانت هذه اللغة هي التي تفصح عن هذا الفكر، وترسـخ انتمائه ووجهته، مثلمـا كانت قديماً، ويطلب أن تكون كذلك في الوقت الحاضر؛ ذلك لأنّ ترسيخ المنطق العلمي في التأسيس لوعي ما في الكـون في هذا العصر، هـو الأهمّ في (صناعة الإنسـان ـ تلـك التـي ـ تتقـدّم عـلى صناعة المحرّك)[٣].

ومن أهم أدوات ترسـيخ هـذا المنطق عدُّ اللغة العربيـة المعـبّر عن الشـخصية الوطنيـة، لأنّ بهـا يتأكّد الانتماء، وبها يتحقـق الاندفاع نحو

النهـوض. فالذيـن يبحثـون عن لغـة أخرى، ويتصـورون أنهـا أفضل مـن اللغـة العربية، ويحتجّـون بأي حجة من الحجج، أو يحاولون جعل اللغة الأخرى بديـلا عنها؛ يعملون ـ من حيـث يشـعرون أو لا يشـعرون ـ على تفتيت الشخصية الوطنية، والتنكر لتاريخها، والعمل على هدم مستقبلها[٤].

ونذكّرُ هؤلاء العلماء الأفاضل بجهود أسـلافهم كالكنـدي، وجابر بن حيان، وابن سـينا، وابن الهيثـم، والبيرونـي، والخوارزمـي، والـرازي، والزهراوي، وابن النفيس، وابن رشـد، وغيرهم وغيرهـم. مـن الذيـن عرضـوا إبداعاتهم بلغة عربيّة سائغة، وأساليب علميّة ممتازة، في الطب والكيمياء والرياضيّات والهندسة والفلك وسائر العلـوم، مطوّعـين لغتهـم العربيّة لتسـتوعب لغـة هذه العلـوم ومصطلحاتهـا، فكانوا فخرَ مجتمعِهم ورادته، ووسـيلته إلى نقـل العلوم، والأخذِ بنهضة علميّة جديدة في حينها، تنسـب إلى قـرون التفوّق العلمي الإسـلامي، وقد كان لهؤلاء العلماء الأفاضل الفضل الكبير في تفجير إمكانـات اللغـة العربيّـة، ورفع لوائهـا، فيما يسـعى أحفادهـم ـ في هذا العـصر ـ إلى إماتة لغة القرآن الكريم، وإبدالها بغيرها، ولم يلتفتوا إلى اسـتعمال الأمـم للغاتها في العلم، ولاسـيّما إلى جوارِهـم الجغـرافي كتركيا وإيـران، فضلاً عن لحـَظِ إحيـاء العبرانية الميّتة واسـتعمالها لغـة علميّـة، وهي لغـة من اغتصـب أرضهم ومقدسـاتهم، ونذكّرهم بقوله تعالى: «لسـانُ الـذي يُلحِدون إليه أعجميّ وهذا لسـان عربيٌّ مبين» ـ (النحل ١٠٣)، و«أتستبدلون الذي هو أدنـى بالذي هو خير» ـ (البقرة ٦١)؟ «ما لكم كيف تحكمـون» ـ (القلـم ٣٦)؟!... ونعرض على هؤلاء المختصين التساؤلات المشروعة الآتية: من نحن؟ وماذا نريد؟ أنحن مجرد ناقلين لما عند الغربيين؟ أم يراد منّـا أن ننتقل إلى الغربيين؟ هذا هو السؤال الأسـاس؟أنريد أن نحافظ على شـخصيتنا الحضارية؟ أم نضيّعها بالالتحاق بالغربيـين؟ أنريـد أن نتفاعل مـع ما عندهم؟ أم نلغـي وجودنـا وما يناسـبنا لمصلحتهم؟! أفنسلمُ إلى ما عندهم بلغتهم فنفارق مجتمعنا؟ أم نحوّل ما عندهم من علم إلى لغتنا ومجتمعنا؟ أنعي أنّ الاستسلام سيمسخ شخصيّة مجتمعنا مسـتقبلاً؟! وسـيحولنا تحوّلا أعمـى إلى كيان الغرب وشـخصيته، وإلى الابتعاد عن مجتمعنا وأهلنا؟

● **اللغة والنهضة العلميّة :**

يربـط ابـن حزم تراجـع اللغة بتراجـع مكانة أهلهـا، إذ يسـقط أكثر اللغة ويبطل بسـقوط دولة أهلها، ويتسـلل غيرهم إليهـم، وعنده أنّ نشاط لغة الأمة وعلومها بقوة دولتها، وأما من ضعفت دولتهم وغلب عليهم عدوّهم، اشـتغلوا بالخـوف والحاجـة والـذل وخدمـة أعدائهم، فمضمونٌ منهم التبعية وموت الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، وتراجع أخبارهم وبيود علومهم[٥].

ونقول: إنّ الذين يتخذون لغة الغربيين يجدون لـو راجعوا وتتبعـوا و تأمّلوا الربـط بين اللغة والنهضة، إذ إنّ النهضة الحقيقية التي ننشدها لـن تكون مـن دون نهضة لغويـة، ولن يكتب لها النجاح، وسـتظلّ هجينة شكليّة تابعة غير أصيلة؛ وهذا معروف منذ القدم، عند الغربيين وغيرهـم، إذ يُحكى أنّ (ملك الصين وجه قديمًا السـؤال الآتي إلى الفيلسـوف (كونفوشيوس): أريد أن أصلـح مملكتي، فبماذا أبـدأ؟ فأجابه الفيلسوف: ابدأ بإصلاح اللغة)[٦].

وربطـت الثورة الفرنسـية بين الفكـر واللغة، وأكـدت أثرهما في التطور والبناء، إذ (لم تمض أكثـر من خمسـة أعـوام عليها حتى أسّسـت في فرنسـا الأكاديميـة القومية للعلـوم والآداب والفنون والأخلاق والسياسـة، وذلك في ضوء ما مضى من تاريخ فرنسـا، وفي ضوء ما تستقبله من مصـير، أو تطور شـامل، وكان من فروع البحث التي حـددت لهذا المعهـد القومي فرع بحث وتحليل علاقة الفكـر بالعالم الخارجي، أي بالحواس، وباللغة، وبالمعرفة الإنسانية؛ وقد قدم أحد أعضاء هذه الأكاديمية رأياً واضحاً في

هــذا الموضوع الذي نتحدث عنــه، وهو أن اللغة ليســت لمجرد التعبير عن أفــكار تكوّنت بل هي جــزء لا يتجزأ مــن عملية التفكير ذاتهــا؛ وإذن فتطــور العلوم والمعرفة مرهون بتطور اللغة أو تطويرها، وهي نتيجة يمكن أن تصاغ على نحو آخر، وهو أنّ من المحال تحقيق تغيير للإنســان أو ترقــيه ما لم يســبق ذلك تغيير علاقته باللغة أو تطوير إحساســه باللغة، وإقداره على التأثر بها والتواصل معها، وفي هذا الســياق ترد أفكار ودعــوات بعض المفكرين الفلاســفة مــن قادة القوميــات الغربيــة في العصــور الحديثة حول دور اللغة في خلق الفكر، وتأســيس الشخصية القومية، وتأهيل الإنســان للإبــداع؛ فهذا هردر Herder الألماني يعلن أن رؤية الإنســان للعالم راجعة بالأساس إلى النسق اللغوي التي ينشئها إنشــاءً، وأنّ لغة الأمة تتضمن هذه الرؤية، التي توجه الأفراد وتوحد بينهم داخلها؛ فاللغة ليست أداة أو وســيلة وحســب، بل هي أكثــر من ذلك بالنسبة للأمة ولفكر الأمة، فهي الكل الحضاري والمستودع الثقافي والشكل الفكري)[٧].

وإذا كانــت هذه هي مكانة اللغة، وأنّها معجزة الفكر العامّة، فمن الطبيعي أن تكون هي نفسها معجزة الله الكــبرى في كتابه المجيد عند العرب والمســلمين، لأنّ فيــه الهديَ، وانطــلاق النهضة الفكريــة في القديــم، ويمكن أن يكــون كذلك في هــذا العصر، ولاســيّما في تنبّــهِ الــرواد العرب، الذين اســتندوا إلى لغة القــرآن الكريم في الإحياء والتجديد.

ولــو اســتندنا إلى الدليل الديني فــإن ثبات لغة القرآن الكريم ودوامها، بإرادة الله شاء أهلها أو لم يشاؤوا، فالله سبحانُه وتعالى هو الكفيلُ بمدّ لغةِ كتابهِ ووحيهِ بأسباب الاستمرار والبقاء، كلّما تعرّضــتْ لخطرٍ إلى يوم القيامةِ، قال تعالى: «إنّا نحن نزلنا الذكــرَ وإنّا له لحافظون» ــ (الحجر ٩)، فما دام القــرآن محفوظًا بعناية الله تبارك وتعــالى، فلغــة كتابهِ كذلك محفوظــةٌ بحفظه، وبقاؤها ببقائه، بدليلِ فشل دعوات الذين سعوا إلى تتريك هذه اللغة، أوتركها واســتعمال غيرها، وكذلك من لغات الغزاة والمستعمرين كالفرنسيين والإنكليــز والإيطاليين وغيرهم، قديمــاً وحديثاً، أو بناء لغات مســتقلّة عنها، استناداً إلى الاعتناء باللّهجات المحلية أو العاميات في البلاد العربية، وجعلها لغات رسمية تستقل عنها، وتكون بديلة لها، وتحلّ محلّ لغة القرآن الكريم، مثلما جرى في تجارب أوربا واستقلال لغاتها التي كانت محلّيّة عن اللغة الأدبيّة الأوربيّة المشــتركة أي اليونانية المشــتركة ثمّ اللاتينية، لتكون اللغة المحلّيّة لغة قوميّة لكل بلد أوربّي؛ وبهذا تحوّلت لهجة باريس المحلّيّة بعد أن ساد أهلها بقيّة المدن الفرنسية إلى اللغة الفرنسية، وكذلك أضحت اللهجة اللندنيّة بعد أن مرت بأطوار إلى اللغة الإنكليزيّة[٨]، وهكذا بقيّة الدولالأوربيّةفي استقلالها عن اللغة الأم .

لكنّ الثبات بالقرآن لــ (أنَّ في الإسلام سنداً هامّاً للغة العربية، أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيــث انزوت تماماً بين جدران المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشــعوب التــي اعتنقته حديثاً، وكان لأســلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية، فازدادت قوةً ونماءً. والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يســتطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحــدث بهــا أجداده منذ ألف ســنة، بينما العرب المحدثون يســتطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام)[٩].

لكــنْ لا ندعو في هذا الصدد إلى أن تكون علاقتنا بماضينا علاقة التسليم الأعمى لكلّ ما فيه ــ على الرغم من سموّ مكانته الفكريّة المرتبطة بالدعوة الإســلامية، وعظمته اللغوية الخالدة المحفوظة بالقرآن الكريم ــ بل على سبيل التفاعل بمنهجيّة علميّة في التفكير والبحث والحوار، والأخذ والعطاء استناداً إلى المنهج الأصلح، وكذلك في التعامل مع جديد الأمم الأخرى، الذي فاقتنا في التطور العلمي والحضاري وتقدمت به علينا، فنلحظ ما يُعرضُ

علينا في هذا العصر، وما تفرضه حاجاتنا، بالمبدأ نفسه، أي في التعامل الإيجابي والتوازن بين الموجود والحاجة، فنأخذ ما لا يؤدّي إلى الإخلال بشخصيتنا الحضارية، ولا يضيّع لغتنا العربية من جهة، ولا يضرّ بمستقبل تطور أجيالنا من الجهة الأخرى.

والمرجوُّ من المخلصين البدءُ بالتفكير في استعمال اللغة العربية، وترصين الخطوات التي ستؤدي إلى التعريب، لغة ومصطلحات ونصوص، لأنّ لغة العلم ليست مجموعة مصطلحات معزولة عن البناء اللغوي، بل هي مفردات ونصوص لغوية في مجال العلوم المحضة، تعرض للحقائق العلمية بالوصف والشرح والتوضيح والتدوين، وهذا النصّ العلمي يتصل ببيئة اجتماعيّة يؤثر فيها، وتؤثر فيه. لذلك يُطلب أن يُصاغ التفكير العلمي بلغة المجتمع، وأن يكون تداول العلم جزءاً من تفكير المجتمع وبلغته، على أن يتواصل هذا التفكير مع ما يجري في العالم، في التعرّف على منجزات العلم والتكنولوجيا، التي هي حصيلة الأخذ والعطاء بين أبناء البشر، يشيع بينهم بلغاتهم يتوارثونه ويتبادلونه، وليس محصورًا بأمة معينة، يُحذرُ أن تتعاطاه الأمم الأخرى، وإن تعاطته فلا يلزم أن يكون بلغة أمة بعينها دون غيرها، ومن طبيعة الأشياء، وأساسيات التفكير أن تنتقل العلوم من لغة أمة إلى لغة أمة أخرى، ولذا فإنّ من المنطقي أن لا تكون الرغبة في التعريب رغبة مؤقتة، أو دعوة مرحلية، أو عواطف عارضة، لأنّ المنهجيّة العلميّة تعني الخروج من مناهج العصور الوسطى وآثار التخلف.

وعليه لا بُدّ من القطع في الإجابة عن مثل الأسئلة الآتية:

هلِ الدعوة إلى تعريب التعليم دعوة سياسية مجردة لا مضمون لها؟ وهل هي تابعة لرغبة حاكم من الحكام، تذهب بذهابه؟أو هل هي تلبية لتوجه من التوجهات تنتهي بانتهائه؟ وهل يمكن أن تندرج ضمن الصراع الفكري بين القديم والجديد؟

● **منظومة النهوض والعلم والتعريب :**

لا بُدّ من التفكير الجدّيّ في تجاوز هذه العقبة الكأداء، التي تربط مصير التعريب بالرغبات المؤقتة، أو السلطات الجائرة، أو طبقات الحكم المرفوضة؛ إذ يسعى الذين يميلون إلى القديم إلى كسب العواطف القومية أو الدينية في الصراع السياسي على السلطة، فتجلب لهم هذه التوجهات، وهذه السياسات قطاعات اجتماعية واسعة من الفئات المحرومة المحافظة، فيستفيد المروّجون من هذه العواطف من قوّة العلاقة بين اللغة والعروبة والإسلام، فيتحوّل التعريب إلى رمز من رموز التوظيف السياسي للقديم، الذي ربّما يعادي العلم ويحارب التطوّر، وعند ذاك يدور التعريب بهذا المدار، بمقابل موقف المتخصصين الذين بيدهم التحكم بنجاح هذا الأمر، والذين يمتنعون من تنفيذ خطوات التعريب، ليأسهم من حصول النهضة الحقيقية، وإن افترضوا حصولها فبيد غرمائهم، وقد خُيّل لأكثر هؤلاء أنّهم في موقفهم الرافض للتعريب ينحازون إلى العلم المحض بإصرارهم على اتخاذ اللغة الأجنبية لغة لعلومهم التي يتداولون، وحينها تتراجع قضية التعريب بل تنكفئ وتتوقف.

لكنْ من الفكر السديد إدراك التلازم بين التعريب وإحداث التغيّرات الكبرى؛ التغيرات: الاجتماعيّة، والديمقراطية الحقيقية، والثقافية، والسياسية... إلخ، وفي هذا التوجه تظهر مصلحة المجتمع وتطلعاته، فتتجاوب فيه كلّ الأطراف، أهل العلم المحض، وأهل اللغة، وأهل الاجتماع، والسياسة، ولا تكون مجرد شعارات، وواجهات تروّج لمصالح مؤقتة، تعتمد في الترويج على الحماس والعواطف، تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر، لإرضاء أنصار التعريب ودعاته، والمتحمسين له، من المخلصين وربما غيرهم.

ذلك لأنّ العلم يرتبط بالقدرة على التغيير، فلا ينمو التوجّه العلمي في أجواء الكبت والحرمان، ولا تتحقق النتائج المأمولة من البحوث العلميّة

في منـاخ القهـر والاسـتبداد، ولا يُنتظـر مـن الباحثين الكثير في بلدانهـم، وهم يلهثون وراء الحاجـات الأساسـيّة للعيـش؛ في حين تعرض عليهم كلّ المغريات خـارج بلدانهم، فضلاً عن الحرّية الشـخصيّة والمجتمعيّـة، حريّة العالم في البحث والتعبير عـن الحقائق العلميّة، لذا لا يتحمّس المتخصص للغة بلده في أجواء الخوف والحرمـان، بل يفكّر في ترك هذا البلد، ليأسـه من تقدّمه وتطوّره، وكذلك من تغيّر السـلطات المتحكّمـة فيه، لـذا فقد يعبّر هـؤلاء الباحثون اليائسون عن سَخطِهم بالتمسكِ بلغة الأجنبي التي تعلموا بحسـبها، ويهملون اللغة القوميّة، لا بسـبب القصور اللغويّ، بل بسـبب التخلف السياسي والاجتماعي واليأس من الإصلاح.

فلا بدّ للعلم والتعليم من أجواء مناسـبة يؤدِي العالـم فيها رسـالته، ولابُـدّ لهيئـات التعليم ومراكز البحوث أن تكون متبوعة في مجتمعاتها، لا تابعـة ذليلة، وأن تكون لهـا الحرّيّة الكاملة في التعبـير عـن الحقائق العلميّة كمـا هي، لأنّ العالِمَ لن يبدع وهو يخشى على نفسـه، وحينما يكون يائسـاً من تصرفات سلطات بلاده، لذلك سـيتهيّأ إلى الانتقال إلى المجتمعـات التي تقدر العلـم والعلماء، والأقرب إليه أهل اللغة العلميّة التي يستعملها، ويكون هذا الاستعمال مقدّمة للتمسك بهذه اللغة وأهلها، وسيتصرّف تأسيساً على هذا، وسينتابه الشـعور المصطنع بالغربة في وطنه، وليس لهذا المسـلك أيّة صلة بقصور اللغة الوطنيّة، بل هو خلل سـياسي، بعيد البعد كله عن ضعف لغة القرآن الكريم، لذلك نقول: إنّ أكثر مسـوّغات دعاة تدريس العلوم باللغة الأجنبيّة غير لغويّـة، وإن حاولوا إيهامنا بأنها لغويّة، لأنّهم يتمسكون باللغة الأجنبيّة لأسباب أخرى، يتذرعون بذريعة قصور اللغة العربية، (ومـن الواجب إهمال الحديث عنـه، لأنه وهم، أو أشـبه بالوهم، وتوجيه الجهـود نحو الخلل السياسي، الذي يوهن الجهود اللغوية في الحقل العلمـي العربي، ويقودها بعيـداً عن التأثير في المستوى العلمي للمجتمع العربي)[١٠].

أَوَليـس من القهـر أن تتبع الهيئـات العلميّة، والجامعـات، ومراكـز البحـوث، مـن لا علـم لهم؟ وتأتمر بأوامر من لا صلة لهم بالشـؤون العلميّة؟[١١].

فلا منـاص من التفكـير في هذا الأمـر، وأخذه بالحسـبان، واعتماد المناهج العلميّة التطبيقيّة التي تساعد على تأسيس مجتمع العدالة والعلم والمعرفـة، وتسـعى إلى توطين العلـوم باللغة الوطنيّـة، وإلى بناء القـدرات الذاتية الواثقة في البحث والتطويـر، وتجاوز مرحلـة الادّعاءات اللفظيّة والنظريّة غير الواقعيّة.

ومـن هـذا المنطـق أن يُلتفت إلى هـذه القضية الكبرى، وفهـم معادلتها الشـائكة، وتخليص التعريـب من التجـاذب بين القديـم والجديد، ومراعـاة مصلحـة المجتمـع، وحاجاتـه، ومسـتقبله، ومصلحـة التعليـم نفسـه، فمن التيسـير عـلى المتعلمين اتخاذ لغتهـم في تعليم العلـوم، والتفكـير الجدي في نقل هـذه العلوم لكلّ المتلقين بلغة عربية سليمة؛ تراعي التطوّر العلمي والتقنـي والاجتماعـي والاقتصادي... إلخ، وفي الوقت نفسـه ينبغـي مراجعة دعوات التعريب وخطاباتها السـابقة، وجَعْلِها برامجَ وخططاً أكثر استجابة للعلم والتعليم، تناسب أهل التخصصـات العلمية، وتجتذبهم إليها؛ إذ إنّ التعريـب لا يعني الفرض مـن دون الإقناع والاقتنـاع، ولا يعنـي تضييـع جهـود العلماء السـابقة وهدرها والتفريط بالكفاءات، بسبب التحوّل إلى اللغـة الوطنية، ولا يعني التضحية بالتوازن العلمي الذي كان قد تحقق واسـتقرّ، ولا يعني أيضاً إلغاء التعامل باللغات الأجنبية؛ اللغات التي يجب أن يُهتمّ بها أكثر من السابق في سبيل تطوير التواصل مع العالم، لا مجرد بسط سلطان اللغة الأجنبية لتحلّ محلّ اللغة الوطنية، إذ إنّ التواصـل ضرورة عصرية، لكن المشـكلة في نقـل المتخصص إلى خارج لغتـه ومحيطه، أو دفعـه إلى التفكـير في الاغـتراب عـن هويته، ولغة مجتمعه، فالمطلوب منه أن يكون رائداً في مجتمعـه، قائداً لمسـيرته، في الأجواء الجديدة لا

منفصلاً عنه، في أجواء تدفّق المعلومات، وسرعة انتقالها، واختراقها جميع الحدود والحواجز والقيود، فضلاً عن تنوّعها وغزارتها بما يشبه الطوفان المعلوماتي، وتعدّد وسائل الاتصال كالفضائيات والشبكات العنكبوتية، وسهولة حفظها وتصنيفها واسترجاعها، ممّا سيؤثر في حياة البشر وأنماط تفكيرهم، ووسائل حصولهم على الخبرات والمعلومات، وتعدد الاختيارات ووفرتها، ومن نتائج هذا تعدّد روافد المعرفة، والمساواة في الحصول عليها، في ظلّ التحرّر الفكري والتخلّص من السلطات المستبدّة سلطات القمع والوصاية الفكرية، وسقوط الفرض الأيديولوجي الذي لا يرتضيه المجتمع، ولا يعتمد الحوار؛ والمهم في هذه الأجواء أن لا يُفتقد دور العالم المتخصص، الجادّ في إدخال مجتمعه عالم المعلوماتية، دخولاً يحقق أهداف هذا المجتمع لا أهداف غيره، حريصاً على مستقبله ومصالحه .

صحيح أنّ المطلوب من التجديد الاتصال بالإنتاج العالمي، لكن على وفق ما يناسب المجتمع، وأن يكون النقل بأدواته، وباستعمال لغته، والانتقال بهذه اللغة إلى الاستعمال العلمي بالتدريج وعلى وفق مراحل مخطط لها، ومحددة زمنياً، يتحمّل فيها أهل الاختصاص المهام المنوطة بهم، لأنهم قلب مجتمعهم وروحه، ولا يُتصوّر أنهم يعادون لغتهم، ولا يكرهونها، وعذرهم أنّهم لم يطلعوا على تجربة اللغة العربية في مجال العلم، ولا يدركون الإمكانات التي تملكها لغتهم، ولا الطاقات التي تتوافر عليها، وهذا كله بسبب محاولات الإبعاد، وهالة الغموض التي اصطُنعت في أول مراحل تدريسهم العلوم باللغة الأجنبية، وكذلك الوحشة التي زرعت عند المضي بهذا التدريس، حتى ترسّخت جفوة العربية واعتِيد تركُها في أوساط تداول هذه العلوم، واستفحلت هذه الظاهرة، حتى سلّم المعنيون بالنقص في اللغة العربية واقتصار وظيفتها على الأدب، وعدم صلاحيتها للعلم، واستقر عندهم ظلماً وخطأً أنّ الكمال كلّ الكمال للغة الأخرى في أداء الوظيفة العلميّة.

فالمؤمل من المتخصص الذي هو طليعة المجتمع أن يتقن لغته، ولاسيّما فيما يناسب تخصصه العلمي، والمعوّل عليه في صنع مستقبل بلده، أن يَتدارك هذا الضعف، وأن يعرف خصائص لغته، ويدرك ضرر هذا الضعف وأثره البليغ.

ويطلب من المتخصص أن يعرف القواعد اليسيرة التي تجري على وفقها لغته الوطنية في النحو والصرف، ولاسيما سلامة المفردات، والتراكيب، والنصوص، التي تحقق له التواصل بلغة علميّة مفهِمَة، مترابطة، خالية من الأغلاط، لما تحصّل عليه من معلومات نظرية أو تطبيقيّة، ترتبط بإنجازه العلمي، وتترجم ما تحقق له، وتوصل إليه، يفخر به بين أهله، ويدافع عنه، ويظهر موقعه من اختصاصه.

لكنّ الضعف والتردد لن يَحُولَ بين المتخصص وما يريد نقله مما تعلم باللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، إذا أراد أنْ يتمرّس على اختيار المفردات العربيّة وأصرّ على استعمالها، ولن يتوهّم في بناء الجمل لما يريد نقله إلى اللغة العربية إن باشر هذا الأمر، لكنّه في ظروف الجفوة والمفارقة سيساوره الخوف من استعمال اللغة الوطنيّة، فلا يحسن التوليف بين أجزاء جمل لغته، ولا يختار ألفاظها الصحيحة، ولا يميز لغة العلم، من لغة الأدب، من لغة الحياة اليومية، ولا يميّز المصطلح فيها من غيره من مفرداتها، لذلك نجد أنّ بعضهم لا يريد أن يفكر في هذا الأمر لصعوبته عليه، وقد سلم أمره للغة الأجنبيّة وحدها، مع أنّه لا يتقنها مثل أهلها، فيكون قد ضيّع المِشيتين، فيرمي هذا الهمّ على غيره، فيرى أنّ القضيّة قضيّة ترجمة ونقل نصوص ومصطلحات فتكون على عاتق غيره من المترجمين أو اللغويين، بعيدا عنه، وعن خبرته واختصاصه، ويتوهّم أنّ باب الترجمة فيما إذا فكّر بتجشمه هو مجرّد الاستعانة بأيّ معجم من المعجمات العامة، التي تُظهر المقابل لمعنى ما يتصور، أو ربما الإفادة مَن أيّ موقع من

مواقع الانترنت، حتى إنْ كان ذلك الموقع من جهة مجهولة أو غير مؤهلة، ولا معتمدة من المؤسسات العلمية.

والدليل على ما تقدم أننا لا نسمع عرضا لغويّا صحيحا لخلاصة الرسائل أو الأطاريح، ولا عناية معقولة بالنصوص والمصطلحات العلمية باللغة العربية، ولا تفرقة بين اللغة العامة ولغة العلم، ولا بين اللفظ اللغوي والمصطلح العلمي، ذلك المصطلح الذي يجب أن يشترك في تحديده أهل الاختصاص ويسعون في تطويره وإشاعته، وأكثر ما يعتذر المتخصص عن عدم وضوح خلاصة ما يعرض من إنجاز علمي في رسالته أو أطروحته، بالمترجم الذي ترجم له، أو المصحح اللغوي الذي استعان به.

لكنْ كيف يُتجاهل هذا الأمر المهم يا تُرى؟ أو يُتساهل فيه؟ أو يُسكت عنه؟!

والمتخصص مثلما نعرف له الشأن الكبير في بلده ومجتمعه، لأنه باحث وأستاذ جامعيّ يُنتظر منه الكثير في أمّته، التي منحته الفرص الكبيرة، أن ينقل العلوم إليها، لا أن ينتقل هو نفسه عنها، ويلتحق بغيرها؟!

إنّ الأَولى بالتفكير في إنجاز مهمة تعريب النص العلمي إلى اللغة الوطنيّة الآن وفي المستقبل هو صاحب الإنجاز، المتخصص نفسه، يعاونه مجتمع اختصاصه ولاسيّما أساتذته الأجلاء، ولا نجدُ صلة دقيقة لمن لا خبرة له في معرفة تخصصه العلمي غير دائرة المتخصص ومجتمعه العلمي، فهم المعنيّون بترجمة نصوصهم العلمية إلى العربية وتطويرها، ولا بُدّ لهم أنْ يسعوا في هذا المسعى، وبذل الجهد والمعاناة في النقل إلى لغتهم، لكن قد يستعينون بنظرائهم من الاختصاصات الأخرى ومن ضمن هؤلاء أهل اللغة والترجمة.

على وفق ما تقدم ليس أمام المخلصين المتخصصين في زمن التحدّيات الكبرى إلاّ أن يدفعوا عن لغتهم أخطار تهديدات العولمة، وجعل هذه اللغة تستوعب علوم هذا العصر وتستجيب لمطالبه، وإلا فإنّ الأضرار المحدقة بنا كبيرة، وسريان تأثيرها قوي ومباشر، وأدواتها فتاكة، وتسللها إلى كلّ مناحي الحياة مؤكّد، بالمعلومة السريعة، والمنتوج الصناعي والزراعي والطبي والتقني، فضلا عن الحضاري والفكري والإعلامي، وقد قدّمت بوسائل مغرية، غاية في الإتقان والجمال والجاذبية.

ونقول: إنّ من وسائل الدفع المهمة وردّ هذه الأخطار والتحدّيات تفعيل تداول اللغة الوطنية واستعمالها، والتنبيه الشديد على أخطار ترك هذا الأمر لغير المتخصصين، ولا بدّ من سدّ الثغرات التي يتسلّل منها ما يضرّ هذه اللغة الكريمة، وأوّلها تهاون أهل الاختصاصات العلمية بعدم التفكير بلغتهم، ولا اشتراكهم بوضع المصطلحات العلمية باللغة العربية، وترك النقل إليها من اللغات الأخرى، وإهمال جعل المفردات والجمل والنصوص التي توافق نظام اللغة العربية؛ والاعتناء بالمصطلحات العلمية وإشاعتها بين من يحتاجون إليها من أهل العلم، وصناعة ما لم يصنع منها، والتبصير بكيفيّة ابتكارها، وبالوسائل القريبة والمناسبة، واتخاذ الطرائق الصحيحة لمراجعتها، والسعي في تطويرها، وجعلها صالحة لهذا الزمان باتباع القواعد العلميّة واللغويّة الرصينة والمُحكمَة، وجعل مثل هذا الجهد جزءا أساسيّا من البحث وكمال مستلزماته، لا جهدا ثانويّا كماليّا يمكن أن يُترك أو يُتنازل عنه، أو يكون عمل من لا شأن له.

ولا بُدَّ من الوقوف طويلا بإزاء ما تقدم وتجاوزه في سبيل النهضة العلميّة، والسير الحثيث في تحقيقها، وفي هذا يقول أحد الفضلاء: (فلتكن لنا إسهاماتنا العلمية بلغتنا، ولنتبادل مع غيرنا ما يسهمون به أيضا بلغاتهم، فالفكر شركة بين الناس من مختلف الأجناس، أمّا اللغات فإنها تحدّد شخصية الأمم، كما تحدّد شخصية الأفراد، والتنازل عن لغتنا في العلم جزء من البلاء العام الذي ابتليت به اللغة العربية، فتنازلت عن كثير من مقوماتها الأساسية)[١٢].

ويمكن لأهل التخصصات الذين يفكرون في

مباشرة تداول المصطلحات العلمية بلغتهم الوطنية أن يرفعوا من كفاءتهم اللغويّة، وهم أهل لأن يقترحوا الصحيح والمناسب، وأن يتفاعلوا مع الصيغ التي يُطلب منهم التعرف إليها، ولاسيّما التي بها حاجة إلى مراجعة، وليطوّروا الموجود منها ليلائم ما يراد تجديده، مميّزين أنواع الاشتقاق اللغوية ودلالاتها الصحيحة بالتعاون مع اللغويين، فضلا عن التواصل بها فيما بينهم، والترغيب باستعمال الصحيح الفصيح والملائم من المصطلح اللغوي العربي الجديد، وإشاعته بين الجمهور، ومنحه شرعيّة الوجود وأسباب البقاء والاستمرار.

ولا نزعم أنّ هذا سهل أو ميسور، في ظل ما زُرِع من جفوة بين المختصين واستعمال لغتهم الوَطنيّة، حتى ظنّوا أنّهم غير معنيين بأمرها، ولا شأن لهم بها، وأنه شأن لغويّ محض، أو أنهم يشترطون أن تبلغ المصطلحات العربية ما بلغه المصطلح العالمي شيوعا واستعمالا، وأن يكون بمستواه من دون جهد منهم، أو متابعة تحقق ما يريدون أو يشترطون، والواقع أن لا جهود لجلّهم يبذلونها في هذا السبيل، كالمتابعة والبحث عن المنجز من المصطلحات العلميّة العربيّة واستعمالها إلى جانب المصطلح الأجنبي، وفي هذا الاستعمال لو حصل لخطوا الخطوة الصحيحة الأولى في المضمار المناسب، ولأسّسوا للتعامل الصحيح لما يذلل الصعاب العلمية واللغوية، التي تعترض طريق إشاعة النصوص العلمية وكذلك المصطلح اللغوي العربي.

ولا يكون كلّ ذلك إلاّ إذا فُهمت مشكلة التعريب على حقيقتها عند المعنيين، وهي أنها قضيّة فكريّة كبرى ترتبط بترسيخ انتماء أبناء الأمّة لأنفسهم، ولحضارتهم ومستقبلهم، فيكونون عند اختيارهم اللغة الأجنبية كالمفارقين للغتهم والمتعمّدين السير بالالتحاق بالأمم الأخرى، والمتنكّرين لمجتمعهم، والمتكبرين على أبناء جلدتهم، والتاركين لبناء العلوم بها، فلا هُم في الواقع يطورون لغتهم باستعمالها في تداول العلوم، ولا هم يسعون في الإسهام في تعريب المصطلحات أو استعمالها وتطويرها.

يقول الدكتور محمد عيد: (إنّ قضية تعريب العلوم ليست مسألة لغويّة فقط، بل هي في المقام الأوّل مشكلة فكريّة، فالعلوم التي يصرّ القائمون على بقاء تدريسها باللغات الأجنبيّة هي الطب والهندسة... وينبع هذا الإصرار من الدعوى بأنّ تدريس هذه المواد باللغة العربية سيؤدّي إلى التخلف عن مسايرة التقدم العلمي العالمي فيها، وهذا كلام صحيح من وجهة نظرهم، إذ يعبّرون به عن واقعهم الذي درجوا عليه، لأنّ المنبع الذي يستقون منه غير عربي، فهم تابعون لغيرهم من الأجانب فيما يقدمه هؤلاء من نظريات واكتشافات، فكروا فيها بعقولهم وكتبوها بلغاتهم، فإذا أراد علماؤنا اكتساب شيء من ذلك، كان ممّا يجود عليهم هؤلاء الأجانب، فيترتب على ذلك أن يتابعوا أصحاب الحقوق في كلّ شيء، في التفكير واللغة وفي الفهم والتعبير. والغريب أنّ الأجانب ـ الذين يتابعهم المتخصصون ـ مختلفون في لغاتهم، وكلّ منهم يؤلف في لغته، ويعتز بها، فالألماني يؤلف بالألمانية، والروسي بالروسية، والصيني بالصينية، والفرنسي بالفرنسية، والإنكليزي بالإنكليزية... فإذا انتقلت القضية إلى العرب وجدنا من يصر على التدريس والتأليف بإحدى اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية، حيث استقوا تعليمهم غالبا بهاتين اللغتين... فلم يستطيعوا التخلص من قبضتهم والسير بجوارهم في الدرس والبحث والتأليف... إنّ حلّ هذه القضيّة ينبغي أن يبدأ من علمائنا أنفسهم، بأن يمتلكوا إرادتهم، ويستعيدوا الثقة بأنفسهم، ويبذلوا جهودا مستقلة للوصول إلى آراء وأفكار ونظريات خاصة بهم، نابعة من متطلبات حياتهم، وما يواجهونه من مشاكل بيئاتهم... لا تصلح لها حلول... تستورد من هنا وهناك، فإنّهم ـ إن فعلوا ـ انقادت لهم اللغة العربية، واستقامت ألسنتهم وأقلامهم في التعبير بها)[١٣].

• الانفتاح وتيسير العربيّة والتعريب:

يقول عضو مكتب تنسيق التعريب: (إن مفتاح التعريب يوجد بحوزة أصحاب القرار، نعني به أنه لا بُدّ من وجود إرادة معززة بقناعة، لدى كل الأوساط العربية الفاعلة، من أجل خوض عملية التعريب، كلّ فيما يخصه، وعلى جميع المستويات؛ ولنأخذ على سبيل المثال - تعريب التعليم العالي، في التخصصات العلمية خاصة؛ لقد ثبت ـ بالتجربة - أن جميع الأساتذة العرب، وحتى الذين تلقوا تعليمهم بلغات أجنبية، قادرون - إذا ما توافرت لديهم القناعة - على إلقاء محاضراتهم وإعداد بحوثهم باللغة العربية، وأن العدد القليل من هؤلاء الأساتذة يتلقى، في ذلك صعوبات طفيفة يتم التغلب عليها في فترة وجيزة. مع ملاحظة ارتفاع درجة استيعاب المواد العلمية لدى الطلبة بفضل تلقيهم باللغة الأم)[١٤].

و(القائلون بالتعريب ليسوا ضِدَّ تعزيز تعليم اللغة الأجنبيَّة - إنَّما هُم يَعْترضون بشدَّةٍ على إحلال اللغةِ الأجنبيَّةِ محَلَّ العربية كلُغة لتعليم العلوم، فكما يفترضُ التعريبُ أن يُمارسَ المُهندسُ أو الطبيبُ أو الزراعيُّ أو حتى الجيولوجيُّ مهنَتَه على الناس، وللناس باللغة القومية، رابطتِه بِهم ووَسيلةِ تفاهُمه معَهُم، فإن نجاحَ مسيرةِ التعريبِ واستمراريَّتَها يتطلَّبان أن يكون هذا المُهندسُ أو الطبيبُ أو الخبيرُ الزراعيُّ ضليعا بلُغة أجنبيَّةٍ تواصَلُ فيها وبِها مع العلماء أو مع مُنْجَزاتِهم لمُتابعة الرَّكبِ العلميِّ في تخصُّصِه والوقوفِ على آخر ما توصَّل إليه زملاؤهُ العلماءُ في العالمِ من حولِه، فلا تحصُلُ فَجوةٌ علميَّةٌ بينَ ما درسَهُ هو كطالِبٍ وبَيْن ما يَتِمُّ بعدَ تخرُّجِه كمُمارس. إن الحاجةَ إلى إتقان لُغةٍ أجنبيَّةٍ عالَميَّةٍ مُعاصرة هيَ اليوم مَطلب تَربوي أساسي لِكُلِّ مُثَقَّفٍ عربيٍّ أو غير عربي، عالم أو غير عالم. لكن هذا لا يفترض ولا يتطلب اعتماد اللغة الأجنبية تلك كلغة لمختلف دراساتهم الأساسية. اللغة الانكليزية، مثلا ... هي اليوم حاجة ضرورية يومية للعالم الفرنسي والألماني والروسي والياباني والكوري وأي عالم من أي قومية كان، فلماذا يا ترى لم تطرح مسألة اعتماد اللغة الانكليزية في تدريس مواد العلوم في أيّ من هذه البلاد؟)[١٥].

لكن من جملة ما يراد من (فرض اللغة الأجنبيّة فرض الاتجاه الواحد وتعميم النسق الواحد للثقافة، من خلال السيطرة على أدوات العولمة وآلياتها، التي تنقل إلى العالم الصور والمعاني والرموز والقيم والأنماط بوساطة البث الفضائي... والحاسوب... وشبكة المعلومات...) إلخ[١٦].

ذلك بالسيطرة والتوجيه المنظم لتكنولوجيا المعلومات، وهذا ما سيؤثر في أسلوب حياة الأمم ومعتقداتها ولغاتها وهويّاتها، وكلّ ما يمتّ من قريب أو بعيد إلى مكوّنات ثقافاتها، إذ إنّ العصر الحالي عصر القطب الواحد، يتجه إلى إضعاف الكتل التي تخالف هذا القطب، ومنعها من المنافسة أو الظهور الإيجابي، وعدم السماح بالوجود المستقل إلا للكيانات الكبيرة، أو من يدور في فلك القوّة العظمى، ويكون في خدمة مخططاتها، في ظلّ التشرذم الذي تعيشه البلدان العربيّة والإسلاميّة، وتحكّم القوى الداخليّة التي لا تمثل الإرادة الحقيقيّة لشعوبها، وإنّ أخطر ما في العولمة، أنها تفتح الأبواب على مصاريعها لهجوم العولمة الثقافيّة، وفرض مفهوم الأقوى، وتقليد كل ما يتصل بأسلوب حياة المنتصر ! وسحق ما يخالفه، لكن ربما بوسائل الجذب المغلفة، والإغراء المبطن، والإغواء والترغيب والترهيب.

فلا بُدّ من وعي مثل هذه المخاطر، وإدراك غاياتها القريبة والبعيدة، والالتفات إلى أهميّة الدفاع عن لغة القرآن الكريم، بتيسير العلوم بهذه اللغة، التي ميّزها الله تعالى بقوله: «بلسان عربي مبين» ـ (الشعراء ١٩٥)، وكان الباري قد يسّرها على رسوله ومن ثمّ على أمّته، في قوله تعالى: «فإنّما يسّرناه بلسانك لِتبشّر به المتقين وتنذِر به قومًا لُدّاً» ـ (مريم ٩٧)، والتيسير إيجاد اليسر والسهولة وعدم الكلفة بلغة مفهومة مبينّة لفظاً ومعنى، وبشارة بالجنة للمتقين، وإنذار للمجادلين من الخصوم المخالفين، وتكرّر

التيسير في كتاب الله، في قوله تعالى: «فإنّما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» ـ الدخان ٥٨)، ويتكرّر قوله تعالى: «ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر» أربع مرّات في سورة القمر [الآيات ١٧، ٢٢ ، ٣٢، ٤٠]، يقول المفسرون إنّ الله سبحانه وتعالى سهّل لغة القرآن وقرّبها، وحضّ المخاطبين على حفظها، قال الزمخشري: «يسّرنا القرآن أي سهلناه للإذكار والاتعاظ، بأن شحنّاه بالمواعظ الشافية، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد... وقد هيّأناه للذكّر»[١٧]، فهذا يدلّ على الحفظ والعناية، وكذلك الموعظة والتقريب على المتلقين، (فهل من مُدّكر) فهل من متذكر ومتعظ لوعد الله ووعيده، يعلم أنّه حقّ فيعتبر .

● المصطلح والتحوّل إلى العربيّة :

إنّ هناك مسوّغات غير لغويّة تمنع من التحوّل إلى عربيّة العلوم، ومنها انشغال المختصين بغير لغتهم لسنوات طويلة، ممّا أفقد أكثرهم استرجاع ما تعلموه أو تركوه من لغتهم الوطنيّة، فسرى إليهم الضعف أو الخوف من الاستعمال الخاطئ للغة العربية، فألف هذا إحساساً بالضعف في العربية، وربما رغبة في المحافظة على مكانة اجتماعية وجامعيّة رفيعة، شعر بعضهم بالحصول عليها، من التدريس باللغة الأجنبية التي يدرّسون بها، ممّا يتحوّل إلى موقف سياسي من مجتمعهم ولغتهم، ذلك الذي يحول دون استعمال العلم الحديث باللغة العربية، وإن لم يكن لهذا علاقة بالعربية من حيث هي لغة[١٨].

ولم تكن مشكلة المصطلح العلمي باللغة العربية عائقاً يحول دون التعريب، لكنّ المشكلة الأساسية في المكابرة والامتناع عن التخطيط لهذا التوجه، ذلك لعزوف المعنيّين في الجامعات ومراكز البحث العلمي عن الانخراط في هذا المسلك، والصدود عن اعتماد العربية لغة علم وتعليم[١٩]. فلم يفكّر بعضهم في ضرر منع اللغة الوطنيّة، من دون اتخاذ خطوات التحوّل التدريجي من اللغة الأجنبيّة إلى اللغة الوطنيّة، على الرغم من أنّ امتناعهم سيؤدّي حتماً إلى ضعف لغة المجتمع وهزالها في مجال العلوم، ومن ثَمّ التأثير في استعمالها العامّ.

لكنْ هناك من المختصّين من نبّه على ضرر ترك لغة المجتمع، مستنداً إلى مالحظه من أثر ملموس لهذا الترك، ولاسيّما في الفهم والإفهام في الحاضر المستقبل، ومنهم الدكتور محمد توفيق الرخاوي، أستاذ التشريح في كلية طب جامعة القاهرة، الذي يقول: «إننا لا ندرّسُ بالعربية طبعاً، كما أننا في الحقيقة لا ندرّس بالانجليزية، كما هي الانجليزية أبداً، لكننا ندرّس خليطاً شاذّاً من الانجليزية المتلعثمة والعربية المكسرة، واللاتينية التي لا نعلم منها حتى ولو الشيء اليسير»[٢٠]. و(يقترح تدريس الطب بالعربية، لأنّ الأستاذ يفكر ويتكلم بالعربية، والطالب يسمع ويفهم بالعربية، في يسر وبساطة وسهولة، وهو الشيء الطبيعي، ولأنه لا يصح إلاّ الصحيح، والحق أحق أن يتبع، وما انتفع قوم بعلم لم يزرعوه في لغتهم)[٢١].

فـ (إذا تلقى الطالب تعليمه العالي مصبوباً بألفاظ لغته وقوالبها، فإنّه يسهل عليه استيعابه وإضافته إلى مخزونه المعرفي في منظومة مفهومية متكاملة)[٢٢]؛ في حين يواجه الطالب الذي يتعلم باللغة الإجنبية، مشقة فهم هذه اللغة، والسياق الذي ترد فيه المصطلحات العلمية، ومن ثمّ فهم هذه المادة العلمية، وليس من السهل التحول من منظومة لغوية فكرية إلى أخرى.

(ويروي الدكتور أحمد ذياب الذي دَرَسَ علم التشريح في جامعة باريس باللغة الفرنسية... ثم عاد إلى تونس ليدرّسَ نفس المادة في جامعة صفاقس باللغة الفرنسية؛ لكنه بعد مدّة تأكد له أنّ مستوى الطلاب باللغة الفرنسية لا يؤهلهم لفهم الدروس، فأخذ يدرّس التشريح باللغة العربية مدة ثلاث سنوات (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨) وكان إقبال الطلاب على الدروس وموافقتهم على استعمال العربية بنسبة ٩٧ ٪، وقد كان ذلك أمراً بديهياً جداً كما يقول،

ثم يتساءل: لكن هل نحن أمة تقبل بديهيات الأمور؟ لأنّ تجربته الناجحة قد أجهضت)[٢٣].
ويقول الدكتور محمد هيثم الخيّاط: (الأساتذة يلوون ألسنتهم برطانة أعجميّة، لا يفهم الطلاب أغلبها؛ والأدهى أنّ كثيراً من المدرّسين الجدد لا يفهمون كثيراً منها ولكنهم يلقونها على الطلاب كأنهم أجهزة تسجيل)[٢٤].
إنّ استعمال اللغة الأجنبية في التعليم العالي والبحث العلمي ومنع الطلبة من تداول اللغة الوطنيّة يحرم اللغة الوطنية من مواكبة التطور العلمي، ويعوق نشر العلم في المجتمع، ويسبب الضعف في التحصيل العلمي عامّة، والتراجع عن استيعاب مجمل حركة التطور في العالم، في ضوء ثورة المعلومات والتقنيات الجديدة، والسرعة فيما يستحدث في شتى مناحي الحياة.
فالمطلوب أن يُتدارك هذا الأمر، بسعي المعنيّين في ترقية استعمال اللغة العربيّة العلميّة، وإيجاد ما ييسّر هذا التوجه، وأن يوائموا بين الحاجة إلى التجديد، وصون القيم والثوابت، وتنمية الثقة بالنفس، وتحفيز القدرات المبدعة، ومواجهة تحدّيات الحاضر والمستقبل، استناداً إلى الموازنة بين التمسك بالأصالة، والتطلع إلى التمكن من مستلزمات ترسيخ المنطق العلمي المعاصر، في الآن نفسه، وهذا ما جرت عليه الأمم الحيّة في الانتقال من مرحلة متخلفة إلى أمم متقدّمة، (ولا يظن أحدٌ أنّ إمكانات التقدم من الطبائع الثابتة عند الشعوب بل إنّ النهضة هي نتاج ظروف تاريخيّة ذات طبيعة ثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة، كما أنّ حركة التاريخ نحو المستقبل هي امتداد تلقائي للماضي تحت وطأة مشكلات الحاضر)[٢٥].
كلّ هذه ستمهد لمشروعية التغيير ومن ضمنها التعليم باللغة العربية ليكون التوجه علمياً وسديداً وراكزاً، وجاذباً للكفاءات العلمية في الداخل والخارج، يكسب حماسها ويطمئنها على مستقبلها ومستقبل أوطانها، ويمنعها من الالتفات إلى غيرها، ليأسها من حصول النهضة الحقيقية في بلدانها، في ظل الأوضاع السياسية الحالية، ومهيعاً صحيحاً يعتمد تأهيل اللغة الوطنية نفسها علمياً، ولاسيما تعوّد نظامها الصوتي والصرفي والتركيبي بين المختصين، وفي ذلك اكتساب للعلم الحديث الذي سيمرّ بمراحل الهضم والتمثيل، والاستيطان الطبيعي الذي سيفتح الآفاق الواسعة أمام التعريب الشامل، هذه المهمة ضرورة حيّة، ستتعاظم فتأتي بتعريب ما يراد تعريبه، عند الباحثين في الأقل بين الذين يستعملون العربية إلى جانب الأجنبية، ونتخلص أيضاً من الانفتاح اللغوي الشكلي والسطحي على الغرب وحده، الذي لن يأتي بما نأمل من نهضة علمية تناسب أجيالنا وطموحاتهم الكبيرة، وعلى الرغم من مواقفه السلبية المتتابعة، ووقوفه إلى جانب أعدائنا، ووضوح المؤشرات بانتقال مركز الثقل الحضاري والصناعي والتجاري إلى غيره، لأن الانفتاح على غير الغرب يتطلب ثقة عالية بالنفس، وأنّ اللغة العربية هي المعبّرُ الأكيد عن هذه الثقة، وهي الكيان الواضح لوطنيتنا وشخصيتنا الحضارية ورأينا المستقل في الحاضر والمستقبل.
وانفتاحنا الواعي على العالم المتقدم في هذا العصر يمنحنا الفرصة في تجاوز ما نحن عليه من تخلف، تخلفنا حتى عن ماضينا، الذي كان قد تمكّن من تطويع اللغة وجَعلها قادرة على التعبير عن حاجات الأمّة وقضاياها في ذلك العصر، فلم يتردّد العلماء في حينها من اتخاذ الخطوات التي تجاوزوا بها ما نسميه بمشكلة مصطلحات العلوم وتعريبها، أو ترجمة المفاهيم والكلمات الجديدة، التي لم تتوافر على ما يقابلها في اللغة العربية، بل إنهم كثيراً ما اكتفوا بنقلها كما هي، لتعرّب فيما بعد، ليتطوّر لفظها باستعمالها ولتكون جزءاً من العربية، واستقرّ عندهم أنّ تقدّم اللغة مرهون بتقدم أهلها[٢٦].
فما أروع أن يستعمل الإنسان لغته بسلاستها وجمالها، وأثرها وسحرها على نفسه، مندمجاً في مجتمعه، وصانعاً من هذا الاستعمال شخصيته العلمية الحقيقية، وبانياً ذهنيته العلمية الصافية

المنسجمة مع نفسها ومع ما يحيط بها، وهي التي ستهيئ للتمكن من الإبداع والإتقان، وهذاهو ما يقرّره علماء اللغات والاجتماع والتربية، لأن اللغة الوطنية هي الأقرب من تمكين الإنسان من العطاء.
نقول: لن يبدع الإنسان بغير لغته، لأن الطالب هنا لن يتمكن من استيعاب المادة العلميّة باللغة الأجنبية استيعاباً كاملاً، ولا تتحقق له المعرفة الصحيحة بها، كما هي في لغته، التي اعتادها في الاستعمال والتفكير، لأسباب لا حصر لها، منها أنه غريب عنها، عن نظامها وأساليبها، وأجوائها وبيئتها، وهو يواجهها بعد أن استقرت عنده لغة مجتمعه، ولذاذة التواصل بها .
والتحوّل إلى اللغة الوطنيّة يستوجب التخطيط العلمي ووضع التدابير التي تفرض استعمال المعجم المعرّب لكلّ اختصاص، والترويج له وتطويره ، والتحقيق العلمي واللغويّ لما فيه ، ليكون أكثر ملاءمة ، لأنّ ما في هذه المعجمات يخصّ حقائق علميّة متغيّرة ، دوّنت في زمن تتغيّر فيه الحقائق تغيرًا سريعًا ، وربما كانت التطورات قد تجاوزت ما كان قد ثُبّتَ ، وربما لم يستعمل بين علماء أهل الاختصاص ، ولا يعقل أن تستقرّ المصطلحات على ما هي عليه ، على الرغم من امتداد الزمن وتحديث الوسائل وتقدم الحياة في عصر التطوّر السريع .
ولا بُدّ من لحظ انشغال المختصين بغير لغتهم لسنوات طويلة ، ممّا أفقد بعضهم استرجاع ما تعلّموه أو تركوه من لغتهم الوطنيّة ، فسرى إليهم الضعف أو الخوف من الاستعمال الخاطئ للغة العربية ، فيؤلف هذا إحساسًا بالضعف في العربية ، وربما رغبة في المحافظة على مكانة اجتماعية وجامعيّة رفيعة ، شعر بعضهم بالحصول عليها ، من التدريس باللغة الأجنبية التي يدرّسون بها ، ممّا يتحوّل إلى موقف سياسي من مجتمعهم ولغتهم ، ذلك الذي يحول دون استعمال العلم الحديث باللغة العربية ، وإن لم يكن لهذا علاقة بالعربية من حيث هي لغة .

● الهوامش :

(١) الحيوان ص ١٩، والبيان والتبيين ج١ /ص١١.
(٢) الصراع بين القديم والجديد، د محمد الكتاني ص ٢٢.
(٣) مجلة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٥٤.
(٤)الصراع بين القديم والجديد ، د. محمد الكتاني ص ٢٤.
(٥) الإحكام في أصول الأحكام ج١ /ص٣٢.
(٦) العربيّة وتحدّيات العصر، محمود أحمد السيّد ٣٦.
(٧) العربيّة وتحدّيات العصر، محمود أحمد السيّد ص ٣٦.
(٨) دراسات لغويّ، د عبد الصبور شاهين ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٩) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي ص ٣٠١.
(١٠) مجلّة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٧٥.
(١١) مجلّة آفاق الثقافة، الرفاعي ص ٧٥.
(١٢) المظاهر الطارئة على الفصحى، محمد عيد ص١٣٦.
(١٣) المظاهر الطارئة على الفصحى، محمد عيد ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(١٤) مجلة اللسان العربي، د. ولد سيدي أحمد ص ٣٠.
(١٥) مجلة اللسان العربي، أحمد شفيق الخطيب ص٢٠٥.
(١٦) مجلة آفاق التراث، رواء زكي يونس ص٦٧ ـ ٦٨.
(١٧) الكشاف، للزمخشري ص ١٠٦٦.
(١٨) مجلة آفاق التراث، الرفاعي ص ٥٩.
(١٩)مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، شاكر الفحام ص١٧٠.
(٢٠) علم المصطلح، د علي القاسمي ص ١٢٣.
(٢١) علم المصطلح، د علي القاسمي ص ١٢٣.
(٢٢) المصدر نفسه ص ١٢٢ .
(٢٣)علم المصطلح، د علي القاسمي ص١٢٣، ومجلة اللسان العربي، د أحمد شحلان ٩٩٧ ص٩٢ ـ ٩٦.
(٢٤) الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربيّة الأردني، ١٩٨٤، ص ٨٥.
(٢٥)مجلة آفاق التراث،الرفاعي ص٥٩.
(٢٦) اللسانيّات واللغة العربيّة، د الفاسي الفهري ص ١٨١.

Science, Education and Arabic

By : Dr .Mahdi Salih Sultan

Abstract

Academic specialists are Preoccupied With languages other than their mother tongue. Which made them lose what they have learned .consequently, they became afraid of misusing Arabic till they became afraid of their own society and their own language. Whoever tries to reuse her/ his mother tongue , Face great difficulties because , language thrives When it is used and declines When it is abandoned and neglected. "

None the less , What specialists are required to use Arabic and enhance the steps that Will lead to Arabization linguistically , etomologically, and textually they are also required to mold Scientific thinking in simple language , because the issue of the national language is the issue of the nation as a whole and when the indivicluals a band their language, it recedes. and stops growing Besides language mirrors the state of the nation and it is the mouth piece of its Soul , characteristics . When the scientists of this nation abandon the language

Of Quran and use another language , they Surrender to other and abdicate the main core of their identity . They also close the interaction with modern Science and Culture and copy other's experiences without natural digestion serious representation, logical rationing or Positive interaction .